"الإبداع في شعر الجواهري"

محمد عبد علي حسين القزاز

جامعة الكوفة /مركز دراسات الكوفة

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف أنبياء الله والمرسلين محمد وعلى آل بيته الأبرار المصطفين الأطهار،و الحمد لله حمداً سرمداً دائماً لا ينقطع أبداً ولا يحصي له الخلائق عدداً،والحمد حقه كما يستحقه حمداً كثيراً. أما بعد

الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري ,آخر الشعراء الكبار في إبداع القصيدة العمودية وقد لُقِبَ بشاعر العرب الأكبر, وقد توفي الشاعر الجواهري بعد أن بلغ سِنُهُ أكثر من ثمانين عاماً. ولد ألجواهري في العراق, ودفن في دمشق, وعاش متنقلاً بين عدة دول منها الأردن ومصر والمغرب وروسيا ويوغسلافيا.

بحثُنا الموسوم أمامكم يحمل عنوان " الإبداع في نهج الشاعر محمد مهدي الجواهري" الشاعر العراقي الكبير قيل عنه الكثير بدءاً من نابغة الشعر العربي، ومروراً بشاعر العرب الأكبر، وأمير الشعراء بعد شوقي، ووارث الشعر العربي ومتنبي العصر وربّ الشعر، وانتهاء بألقاب وأوسمة أدبية قلما حصل ويحصل عليها شاعر عربي آخر.

طلع الجواهري على القرن العشرين من بيت أسواره الدين والمذهب وأعمدته العلم والثقافة والأدب، ومن مدينة بيئتها الدين وظواهرها التحفظ والالتزام، ومحيطها بحار من كتب الاستدلال والجدل، والفلسفة والأحكام، ورجالها علماء فقهاء مراجع التقليد وشعراء و أدباء، ومن بلد تتكالب عليه القوى الاستعمارية. فهذه الشخصية ملازمة طبعاً لكل أحداث القرن، ولعل الذي أطلق على القرن العشرين بقرن ألجواهري لم يكن مبتعداً عن الحقيقة، فهو كان عرافا و أمة العرب في قرن.

إن أول ما يلفت النظر إليه الخلفية التراثية والثقافية للجواهري هو بيئته يعني البيئة الخاصة والبيئة العامة، فالبيئة الخاصة ترجعك كما أوردنا إلى بيئة الأسرة الثقافية، وكما أشرنا فقد نشأ في أحضان عائلة تتصف بالعلم والأدب، وتقرظ الشعر، وتطارح وتعارك في المطارحات والمعارك الأدبية، فالأب عالم وشاعر، والأخ الأكبر شاعر متجدد ومتأدب، وهكذا الأجداد والأقرباء هذا من الجانب الثقافي والفكري، وأما البعد الاجتماعي لبيئته الخاصة فهو ليس بأقل من البعد الثقافي والديني تأثيراً، فالعائلة من العائلات الشهيرة والسلالة سلالة علماء وفقهاء، والمنزلة سامية وكبيرة على الرغم من مرور ظروف وأيام عجاف وجوع وصعاب كلها بإمكانها أن تتحول إلى عوامل بناء في كيان أفرادها وقد تتحول إلى عوامل ثورة، وتمرد.

Abstract

Praise be to Allah and peace and blessings be upon the noblest of God's prophets and messengers Muhammad and his righteous pure queuing, and thank God thank Sarmada always endless, never count the number his creations, and his right to praise it deserves as much praise .After Iraqi poet Mohammed Mehdi jeweler, last poets adults in the creation of vertical poem has the title of greatest Arab poet, the poet jeweler died after reaching age of more than eighty years. Born in Iraq, Jeweler, and was buried in Damascus, and lived traveling between several countries, including Jordan, Egypt, Morocco, Russia and Yugoslavia .

've Marked before you titled "Creativity in the approach of the poet Mohammed Mehdi Jeweler" great Iraqi poet said about a lot from the genius of Arabic poetry, and through the poet Arabs larger, and Prince of Poets after Shawky, and an heir Arabic poetry and Mutanabbi age Lord of the hair, and the end titles and medals literary rarely happened obtained by the poet and the other Arab .

Random Jeweler on the twentieth century from the house walls of religion and doctrine and the pillars of science, culture and literature, and the city environment, religion and manifestations of the reservation and commitment, and the surrounding seas of the books of reasoning and debate, philosophy and Conditions, and the men scientists jurists references to tradition, poets and writers, and from one country flock by the colonial powers. This is of course an inherent personal events per century, and perhaps given to the twentieth century, a century jeweler was not away from the truth, he was a fortune-teller and the Arab nation in a century .

The first thing that draws attention to the background, heritage and cultural rights of the lapidary is the environment means the environment and the general environment, environment for Trjek as Ordna to the family environment, cultural, and as we grew up in the arms of the family is characterized by science and literature, and Tqrz hair, Ttarah and scuffled in Almtarhat and battles, literary, father world and a poet, and an older brother poet renewed and Mtadb, and so grandparents and relatives this side of the cultural and intellectual, and the social dimension of the environment for it is nothing less than the dimension of cultural and religious influence, The family of families and the famous dynasty dynasty scholars and jurists, and status-Semitism and significant despite the passage of the conditions and days lean and hungry and all difficulties can be transformed into building factors in the entity of its members have become factors of revolution and rebellion .

بحثنا هذا يتكون من مبحثين :-

المبحث الأول : يحمل عنوان " نشأة الجواهري وسيرته " نستعرض في هذا المحور ظروف ترعرع شاعرنا في مدينة النجف الاشرف ونشأته، وتأثيرها في بروز الإبداع الشعري لدى شاعرنا الجواهري.

المبحث الثاني : يحمل عنوان " الإبداع عند الجواهري" نستعرض في هذا المحور أهم المميزات الإبداعية في شعره.

أما بالنسبة للمصادر المستخدمة في بحثُنا، فاستعنا بمصادر أدبية بحت في هذا البحث ساعدتنا في الإتمام به، وانتهجت لنفسي أسلوب البحث الموضوعي في إتمام تسلسل أفكار البحث من أجل الوصول للنتائج المتوخاة من هذا البحث المتواضع .

المقدمة

الحمد لله القادر على كل شيء، والحمد له الواسع الرحمة والمغفرة والباسط يده فوق عباده جميعاً،له الحمد وهو على كل شيء قدير،يحي ويميت وهو الباقي بعد فناء كل شيء،والصلاة والسلام على أشرف أنبياء الله محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الحقيقة أن شموخ و سمو عظمة روحه العلمية جعلني حائراً في اختيار الجانب الخاص بشعره أو بحياته ولكنني وجدت أن الأفضل لي أن أدرس كافة الجوانب الخاصة والعامة المضيئة من حياة هذا الشاعر العظيم كافة الذي استطيع تشبيهه بأمير شعراء روسيا "الكسندر سيركييفج بوشكن ".

المبحث الأول : " نشأة الجواهري وسيرته ".

نستعرض في هذا المحور ظروف ترعرع شاعرنا في مدينة النجف الأشرف ونشأته، وتأثيرها في بروز الإبداع الشعري لدى شاعرنا الجواهري.

الجواهري ومدينة النجف

ولد شاعرنا الكبير سنة ١٨٩٩م في مدينة النجف الأشرف، ذلك المركز الديني والأدبي البارز، ينحدر من أسرة عريقة في علوم الفقه والأدب والشعر عرفت بأسرة الجواهري نسبة لكتاب جليل اسمه (جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام) للمحقق "الحلّي" ألفه الشيخ "محمد حسن" أحد أعلام الفقه في عصره والمرجع الديني البارز للطائفة الشيعية في زمانه، وطار صيت الكتاب حتى عرف به مؤلفه "صاحب الجواهر" ومنها جاء اسم العائلة "آل الجواهري". وعلى ذكر الأسرة قال فقد ارتبط اسم أسرته باسم جده الفقيه الكبير الشيخ محمد الحسن نجفي المولد هو وسبعة من آبائه، والمسمى باسم موسوعته الفقهية "جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام". قرأ القرآن وهو في سن مبكرة ثم أرسله والده إلى مُدرّسين كبار ليعلموه الكتابة والقراءة والنحو والصرف والبلاغة والفقه وخطط له والده وآخرون أن يحفظ في كل يوم خطبة من نهج البلاغة وقصيدة من ديوان أبي الطيب المتنبي. نظم الشعر في سن مبكرة وأظهر ميلاً منذ الطفولة إلى الأدب فأخذ يقرأ في كتاب البيان والتبيين ومقدمة ابن خلدون ودواوين الشعر، كان في أول حياته يرتدي لباس رجال الدين [١].

طلع الجواهري على القرن العشرين من بيت أسواره الدين والمذهب وأعمدته العلم والثقافة والأدب، ومن مدينة بيئتها الدين وظواهرها التحفظ والالتزام، ومحيطها بحار من كتب الاستدلال والجدل، والفلسفة والأحكام، ورجالها علماء فقهاء مراجع التقليد وشعراء و أدباء، ومن بلد تتكالب عليه القوى الاستعمارية. فهذه الشخصية ملازمة طبعاً لكل أحداث القرن. هذا الرجل الشاعر، الثائر، العاشق، الجوال، دخل التاريخ من بابه العريض في بدايات هذا القرن وامتد به العمر إلى نهاياته، لكأن الأقدار أرادته أن يكون شاهد عصره المتفرد، يكشف الزمن بشخصه بعد أن صال وجال، وعشق، وكابد وناضل، ونفى وتشرد، أنه جاب البلاد وبين كل هذه الحدود كان الشعر هو الأساس [٢].

ترعرع شاعرنا في النجف الاشرف التي تمتاز عن مدن العراق الأخر، فيرى المرء العجب العجاب على حد قوله، فحتى القصاب أو البقال، إذا أراد الاستراحة قرأ شيئاً مما يلقى في المنابر الحسينية، أو يتغنى بما كان يتغنى به الشعراء الشعبيون الأوائل. فالمعروف أن والده ابتدأ حياته شاعراً و انتهى فقيهاً، فلقد كان سعى كل سعيه ليصنع من ابنه محمد مهدي رجلاً يسير سيره ويجتهد اجتهاده، ليرجع على يده مجد العائلة الجواهرية في الفقه والزعامة الاجتماعية، ومن أجل هذا كان الأب يشتد على الابن في حضور الدروس ويوصي أساتذته بالتعامل معه على هذا الأساس، أما الجواهري فقد كان يضيق صدراً بهذا ويرى نفسه وقد خُلق لشيء آخر، فقد كانت الدوافع الشعرية الكامنة في خلقه وفطرته تتجاذبه شيئاً فشيئاً، لتحدده وتشخصه وتصنعه في قالبه الحقيقي الذي يتطابق مع نفسه ومع ميوله لا مع ما أريد له، وان كان هذا سيخلق تضاداً وتناقضاً مع الواقع الموجود. فلم تكن بداية الشعر عنده إلا استجابة لغريزة داخلية تحركه نحو الشعر، وكان له ولع رهيب بالشعر يصل إلى الدرجة القصوى، فهو منذ البدء لم يستسغ من العلوم الفقهية والأصول ما يؤهله للسير في طريق العلم والفقاهة، وبقي الشعر هاجسه الأول الذي لا يستطيع تفويت أية فرصة ليظفر به[٣].

كان الجواهري شاعراً خلاقاً تطيعه اللغة وتنساب بين يديه وتطاوعه فاستطاع أن ينحت كلمات جديدة ليست موجودة في التراث اللغوي وحين سئل عن ذلك قال: هل أنا أفضل في القدرة على تثقيف اللغة واستنباطها أم الأعرابي

في الصحراء الذي يتكلم على السليقة فقط ! وهو بذلك يعتقد أن الأمة العربية في هذا القرن أفضل في قدراتها ومعرفتها بعد أن تطورت الآداب والعلوم كافة. وكان الجواهري شاعراً مصوراً ذا قدرة فائقة على ابتكار المشهد كما كان قادراً ومتمكناً من الموسيقى الشعرية وله تنويعات كثيرة عليها.

يقال إنه في إحدى مناسبات الاحتفال بميلاد الشاعر العربي أبي العلاء المعري في مدينته معرة النعمان، وكان من ضمن الحضور الكاتب المصري الكبير طه حسين. الجواهري ألقى قصيدة بالمناسبة،حين سمع طه حسين بهذا نهض واقفاً وقال: الآن سمعت شعراً وظل واقفاً حتى انتهى الجواهري من قصيدته وقد تناول الجواهري في شعره الغزير هموم وتطلعات الشعب العراقي والشعب العربي والإنسانية أجمعها، وكان مناهضاً ضد الاستعمار والإمبريالية والصهيونية ومدافعاً عن حقوق الإنسان والحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية ومن أفضل قصائده وأشهرها في هذا المجال القصيدة التي يرثي بها أخاه جعفر والذي سقط في شارع الرشيد ببغداد شهيداً تحت وابل من الرصاص البريطاني المتحالف مع السلطات القائمة آنذاك. الجواهري على سعة تراثه الفكري، وعطائه الأدبي، ووفرة إنتاجه يصعب عليه حذف بيت أو بيتين من شعره ويرى أن البيت الذي يخلق هزيلا، ويخرج متهافتاً يمكن تقويمه وإصلاحه، بتغيير في المبنى فيعود جيداً ممتازاً. والجواهري كغيره من شعراء العربية قد يبدل ويغير كلمات من القصيدة ويقدم ويؤخر في بعض أبياتها، وقد يحذف منها مالا يروقه. وله كل الحق في ذلك مادامت من نتاج فكره ومحصوله الذهني(٤).

ويتغافل الجواهري عن بعض قصائده القديمة والحديثة منها فلا يذكرها في أحاديثه ولا ينشرها في دواوينه المتعددة الطبع مع جرأته وعدم اكتراثه ومع أنها من جيد الشعر ومحفوظة من الناس وماذلك إلا لأنها نظمت في مجال سياسي معين، وقد يكون له بعض العذر في هذا لأن الحاقدين عليه والحاسدين يلبسون ثياب النقد، وفراء الثعالب فيشتمونه عن هذا الطريق كما فعلوا معه مرات عدة، وكأنهم يتناسون ويتغافلون دوره الكبير في ذلك كله.

ممّا يُلاحظ عن الشاعر الكبير مُحمَّد مهدي الجواهري أنَّ من تناوله بمؤلفاته كان مُتناولاً إيّاه ذاكرةً وليس دراسةً في الأغلب الأعم ولم يُكتب عنه كدراسة إلا النَّزر القليل من المؤلفات بل أن حتى كُتب الدراسة لم تخلُ من الحوادث والحوارات الشخصية مع الكاتب !؛ ورُبَّما يعود ذلك إلى أن كلّ مَنْ كتب عن ألجواهري كان مُقرَّباً منه شخصيّاً مثل (د.محمّد حسين الأعرجي الذي كتب الجواهري:دراسة ووثائق)،(و صباح المندلاوي بكتابيه في رحاب الجواهري والجواهري:الليالي والكتب)،(وعبد الحسين شعبان :الجواهري جدل الشعر والحياة)،(ورواء الجصّاني:الجواهري:إيقاعات ورؤى)،(وخيال الجواهري:سيمفونية الرحيل)(حسن العلوي:الجواهري رؤية غير سياسيّة والجواهري ديوان العصر).

لقد وصلت الزعامة الروحية للشيخ محمد حسن الجواهري في أوائل القرن الثالث عشر وصار المرجع الديني الأعلى للأقطار التي يقطنها الامامية في أطراف المعمورة. ففي مدينة النجف نبغ من هذه الأسرة عدد وافر من العلماء الأعلام في العلوم الإسلامية : منهم الشيخ باقر من أبرز رجال هذه الأسرة في الفقه، والشيخ حسن من مشاهير عصره والشيخ حميد – بالتصغير، وهو عالم متبحر في الأول، والشيخ عبد علي – جد الأستاذ الجواهري لأبيه والشيخ عباس من أعلام هذه الأسرة وفقهائها، والشيخ صادق الذي نال درجة الاجتهاد والشيخ عبد الصاحب الذي عرف بالزهد والتقوى. والشيخ شريف من أشهر أهل الفضل – وهو جد الأستاذ الجواهري لأمه، والشيخ عبد الرسول من مجتهدي العصر ومن الأبدال في التقوى ومضرب المثل بالزهد والتقوى وهو خال الأستاذ

الجواهري،والشيخ عبد الحسين والد الأستاذ الجواهري ومن أبرز العلماء عمقاً،وهو موسوم بجرأة نادرة،وسرعة خاطر، وقريحة عجيبة، ومن هذه الأسرة الشيخ جواد بن الشيخ حميد الزعيم المطاع، ومرجع الرأي في مختلف الظروف والأحوال، صاحب الكلمة النافذة عند الحكام والروحيين.هؤلاء وعشرات من أمثالهم مصلحون وقادة فكر، هم أسرة الجواهري الذي قد ترعرع في كنفهم، فكان لايسمع الاحواراً علمياً أو مناقشة فقهية، يتخللها أدب محتشم.

كان الأدباء في مدينة النجف أغزر نتاجاً وفكرا، فهم في جانب يعيشون في ظل الزعامة الروحية الدينية المطلقة ومن جانب آخر جانب الأدب والعلم والمعرفة، وكانت النجف في ذلك الوقت تزدحم بالنوادي العلمية والأدبية، فكل له محفل يؤمه أصدقاؤه ومعارفه من هواة الفكر والأدب، ولم تكن تلك النوادي بالمعنى المألوف لنا اليوم، فليس لها مناهج مقررة وإنما كانت بيوت تالف هؤلاء الشعراء، ويألفون بعضهم بعضاً، شعراء تجمعهم رابطة العلم والمعرفة والإنسانية، فبيت آل القز ويني والحبوبي وكاشف الغطاء والجواهري وأمثالها من بيوت الأدب والفقه. إن النجف كانت محفلاً أدبياً ضخماً تجود فيه قرائح الكتاب والشعراء، لذا فأن شاعرنا كون له في ذلك شخصية أدبية ممتازة لها أسلوبها ولها إلهامها فأخذ يتجدد أكثر فأكثر، ولكن ظل تجدده في روحه أكثر من تجدده في أسلوبه. نشأ الجواهري عاشقاً للشعر بدوافع داخلية قد يكون لم يدركه هو في بداياته، ويمكننا اليوم تسمية تلك الدوافع الغريزية بالنبوغ، فقد قرض الشعر وهو لم يبلغ الحلم(٥).

هو الشاعر الوحيد بين أقرانه الذي نشرت له أمهات الصحف العربية في العراق وغيره كالهلال والمقتطف وغيرهما من الصحف البارزة في تلك المدة،كما استمر الجواهري بنشر قصائده في صحف ومجلات عديدة أخرى، منها مجلة لسان العرب التي كان يصدرها الأب أنستاس الكرملي،وجريدة العراق وجريدة الاستقلال وجريدة الرافدين وغيرها من المطبوعات في بغداد وخارجها. كما أن السفرتين بين عام ١٩٢٠-١٩٢٤م إلى إيران قد أنضجتا عنده القابلية الشعرية وأيقظتا لديه القريحة الشعرية من خلال تأثره الكبير بالطبيعة الإيرانية، وجمالها الساحر، حيث قال في إحدى قصائده في وصف طبيعة إيران" من قصيدة الريف الضاحك" (٦):

طـــــابَ فَصْـــــلاك: ربيـــــعٌ وخريـــــفٌ كـــلُّ أقطـــارِك يـــا فـــارِسُ ريـــفُ

النجف تعني الحضرة العلوية، المنابر الحسينية، المجالس الأدبية، ومواطن شعراء كبار، ومركز ثورة العشرين، وملتقى العلم والأدب، لقد اكتسب ألجواهري خلفية ثقافية من بيئته النجف لازمته سلباً وإيجابا طوال عمره البالغ مائة عام تقريباً، فقد نبغ في الشعر في حداثته متأثراً بما كان يسمعه وهو يرتاد النوادي الأدبية في النجف من أصوات أبي تمام والبحتري والمتنبي والشريف الرضي. وكان لنشأته في النجف أن اكتسب من البيئة النجفية النزعة المعارضة، فكان ميالاً إلى التحدي والتمرد والرفض، فالشعر كان يسحره ويجعله يرتجف وأهم ما بقى في ذاكرته مجالس الشعر والشعراء، والنجف كانت معروفة بكثرة الشعراء فيها (٧).

لا انفكاك للجواهري عن بيئته، بل لم يقدر على أن ينفك عن النجف أو عن العراق رغم سنين البعد ورغم انقلابه الكبير عن سلبيات الاستقلال الديني لبعض الجماعات، فقد بقي متأثراً بمدينته وبلده ومستأنساً معهما في البعد والثورة. قال الجواهري: "أنا لا أزال أتحدث عن الناحية الأدبية والشعرية عندي، وليس من السهولة بمكان انفكاك هذه الناحية عن ناحية البيئة والمجتمع وحتى ناحية حياتي الشخصية، حياة كل شاعر يعيش مشاعره بأفراحها و أتراحها فضلاً عن أنه وجد ليكون وكأنه مكلف بمشاعر الآخرين وأفراحهم وأتراحهم"(٨) :

و هـــــم ســـــواي علـــــى منكـــــبٍ حملـــــتُ همـــــومي علـــــى منكـــــبِ
أفكُـــــر فـــــيهم وفـــــى الأقـــــربِ ولا شـــــئت نفســـــى فـــــى الأبعـــــدين

هنا لابد من الإشارة إلى أهم دواعي قول الشعر فللشعر دواعٍ مختلفة تلك الدواعي التي تستثير القريحة، وتجعل الشاعر يعيش جواً من الشاعرية، وتجعله قادراً على الدخول في زحمة الخيالات، وتقمص شخصية انفعالية غير شخصيته كانسان يأكل ويشرب، أو يحس ويتألم، كما يصنع العامة من الناس. فالموهبة أو الإحساس الفطري في الإنسان لجوانب فنية يرى فيها نفسه ينجذب ويؤخذ نحوها تعتبر من أهم دواعي ظهور كفاءة فنية أو أدبية خاصة، بالإمكان صقلها وتقويتها كي تتجسد وتظهر بصورها المتحولة والمتغيرة نحو الاكتمال والوصول إلى الخلق، ومن ثم الإبداع، فلابد من أرضية للموهبة أو القابلية المكتنزة لأجل الإبداع، فكل المبدعين حينما تتوغل في تفاصيل نشأتهم الإبداعية يواجهك الاعتراف منهم بوجود وخزات داخلية في كيانهم كانت الداعية إلى التحرك نحو الخلق والإبداع. ولا يمكن استثناء الجواهري في هذا، فكيف ذلك وهو المبدع النابغة في حقل الشعر العربي الذي هو عين الأدب ووجهه البارز. فقد نبغ في الشعر وهو حديث السن بعد ونشأ معه إلهامهُ الذي كان يشده نحو رهبة الشعر وتقديسه، ولقد كان هذا الإلهام الشعري أو الموهبة التي كانت تحيط بكيانه كله السبب في مغادرة النواحي العلمية والفقهية كلها وحتى السياسية التي أتيحت له أن أراد ذلك، ولم يكن بدايته الشعرية إلا استجابة لهذا الإلهام الغريزي، ولا ندري إن كان هناك من يفرق بين الموهبة والإلهام ونظن أن الملهم هو الموهوب، والموهوب هو صاحب الكفاءة الفطرية التي تلهمه نحو إيجاد الأثر الفني أو الأدبي، لا ندري، ألم يكن هكذا دأب العمالقة الكبار الذين خلدوا آثاراً فنية وأدبية لا تنسى. لندع الجواهري باعتباره أحد هؤلاء العظماء أن يلقي الضوء على موهبته الشعرية أو إلهامهِ حيث قال : (فلربما كانت كلمة الإلهام أقرب إلي من كلمة الموهبة، وأتساءل وأنا ألج في هذا الموضوع، هل تتجاوز الموهبة نفسها لتصبح نوعاً من الإلهام؟ أي تتجاوز سيطرة الإنسان على نفسه وعلى أرادته ويصبح خاضعاً لإيحائها بدلاً من أن يكون هو من يوحي إليها، أقول ذلك لأنني أعتبر نفسي بحق أو بباطل، ممن تتكون موهبتهم وهم مازالوا نطفة وتتفجر مع دم الوراثة) [٩].

من الطريف هنا أن نرجع إلى العصر الجاهلي وما كان شائعاً في ذلك العصر حول أن كل شاعر كان يملك شيطاناً يملي عليه قصيدته حين يريد ذلك، فعند امرئ القيس شيطان، وللأعشى شيطان وللنابغة الذبياني شيطان.. الخ، وحتى أن هناك آثار أدبية تتمحور نصوصها على هذا الموضوع. ويبدو أن قضية شيطان الشعر في الفكر الجاهلي هي إدراك للمرحلة الجاهلية لمسألة الإلهام والموهبة الشعرية. وهل يتفق هذا في القرن العشرين مع الجواهري، ولا ندري ماذا نسمى الذي كان يراود الجواهري ليخلق آثاره الشعرية، لقد استساغ الجواهري أمر هذا الشيطان وصرح بذلك حين قال : (وكان شيطان الشعر ينزع في مطاوي نفسي وعلى لساني عندما يغادر أبي البيت، وحينئذ يخرج شيطان الشعر من القمقم شاخصاً أمامي بكل كيانه الساخر إلى العلن لأرتل ما يلقى بين يدي من نتاج العباقرة والشعراء العظام بمثل ما يتغنى به حداة البدو وشداتهم). وهكذا أصبحت الموهبة والقدرة الذاتية للشعر في نمو وازدهار وتصقيل، لتهيئء الشاعر المعجزة وتقدمه في ميدان الأدب العربي، وليس بالإمكان تعويض الموهبة بالتصنع والتكلف مهما جهد الإنسان. فالمتصنعون لا يمكن لهم أن يكونوا موهوبين، وسيبقى إنتاجهم وان نال الاستحسان والقبول بارداً لا روح فيه، ولن يصل أبداً إلى مرحله الإبداع والنبوغ، وأخيراً ليس لهم أن يخلقوا الأثر المعجزة كما يفعل الموهوبون، وتبقى أعمالهم تقمصاً و لا غير [١٠].

لما كان الجواهري منذ بداياته قد فتح عينية وهو يرى في أطرافه أينما يلقى نظرة كتباً ومكتبات، في البيت، وفي الشارع، وفي النوادي الثقافية، ولما كان منذ صباه يميل فطرياً إلى القراءة والمطالعة، كان طبيعياً جداً أن يكون الكتاب صاحبه الوفي الذي لا يغادره في أي حين، بل المتنفس الوحيد الذي كان بإمكانه أن يحتوي الجواهري وينميه ويصقل موهبته وفي المقابل لم يدخر الجواهري وسعاً بالالتصاق بالكتاب للحصول والسعي الدؤوب للحصول عليه وقضاء حاجته النفسية والروحية به، ويذكر الجواهري بأنه في سبيل الحصول على بعض الكتب كان يدخر من النقود التي كانت تعطي له لاقتناء مستلزمات البيت اليومية من خبز وطحين ورز وغير ذلك، ليقتني بها الكتاب الذي يسيل لعابه إلى مطالعته ونهمه، ولقد سمى الجواهري هذه بالسرقة من البيت أو من مصرف البيت [١١].

تبدأ علاقته بالكتب من بداية حضوره في حلقات الدروس التقليدية التي كانت تتوافر في النجف، ويعتبر هذه الحقبة بحقبة القراءات القسرية فقد قال: (فقد تحتم علي أن أحفظ عصر كل يوم خطبة من نهج البلاغة أو قطعة من أمالي القالي وقصيدة من ديوان المتنبي ومادة الجغرافية، وفي صباح اليوم التالي، كان ينبغي أن أدرس النحو والصرف على يد الأديب محمد علي مظفر وعلى أن أتم الأجرومية ثم كتاب القطر (لأبي هشام) ثم ألفية ابن مالك لأتم كل ذلك بتفهم بشهرين أو ثلاثة مثلاً، وبعد النحو درست علم البلاغة والبيان على يد شيخين مقتدرين هما علي ثامر و مهدي الظالمي)[١٢].

يعزو الجواهري إلمامه باللغة العربية أساساً إلى فضل القرآن الكريم ويقول: (أنا مدين له باقتناص اللغة والحرف وحتى الشعر واللقطات والصور من آيات أوحت لي خصوصاً عند ترتيله، فهو يسحرني عند سماعه).وقد أكد الشاعر مراراً في أماكن من مذكراته بأنه اعتمد في ثقافته ولغته بشكل أساسي أربعة كتب ابتدأ بقرائتها وهو في سن الثامنة وهو بحاجة إلى قراءة هذه الكتب حتى في الثمانين من عمره وهذه الأربعة تعد من ركائز الأدب العربي وهي: (الكامل، الأمالي للقالي، كتب الجاحظ، نهج البلاغة). كانت هذه المقومات الأساسية لنضج ثقافته وشيئاً فشيئاً توسع الجواهري بالقراءة واشتد ولعه الكبير بالكتب الأدبية، وكان يستنسخ دواوين فطاحل الشعراء من الجاهلي، والعباسي وغيرهم[١٣].

قال الجواهري" بدأت بعد ذلك شخصيتي الأدبية ذاتياً، وبما يشبه الجنون، كنت ألتقط الكتب كمثل الجوعان أو العطشان إلى كل كتاب أدبي أو ديوان شعري يقع تحت يدي، بدون تمييز حتى أن بعض الكتب كان يجب أن أستعيرها من أصحابها، وبعض الكتب لولعي الشديد لها كنت أنقلها بخط يدي كاملة حتى أرجعها إلى أصحابها، ولكن بعد بدأت أفرز ميولي وأميل إلى جانب بعض الكتب دون أُخر، و حينها بدأ حبي للاتجاهات الأدبية، ومن هنا كان ولعي الشديد بالمتنبي كثائر والى جانبه ولعي بالبحتري كرسام من حيث الصياغة، والى الآن لا يفترق الإبداع عن التمرد"[١٤]. لم يكتف الشاعر بقراءة كتب الأدب العربي بل خرج عن هذه الدائرة إلى عالم أكبر وهو ما كان يتواجد من كتب عصر النهضة الوافدة من الغرب إلى الشرق ولم يدع كتاباً يفوته في هذا المجال فقد قرأ »الأوباش« لأميل زولا و »اللصوص« لشيلر، و »ابن الطبيعة« لهايز باشيف و» مذكرات حمار« لكاتبة فرنسية [١٥].

قرأا لشاعر كتب همنغواي وكتاب "بابا همنغواي" الذي كتبه سكرتيره وقد قرأهُ ثلاث مرات، وكتاب "الزئبقة الحمراء" "لاناتولي فرانس"، هذا فضلاً عن قراءته للكتب الروسية، فقد قرأ كل كتب "تولستوي،" "غوغول"، "تور جينيف"، "بوشكن"،" آنا كارنينا" "بطل من زماننا"،"ومذكرات مكسيم جوركي"، وكذلك "الجريمة والعقاب"[١٦]. قرأ الجواهري أمثال هذه الكتب وتأثر بها أشد التأثير وبقيت ملامح تأثيرات هذه الكتب على أدبه وشعره مدى حياته وحتى

أنه نظم قصائد عديدة من وحي بعضها، مثل قصيدة الأوباش، وقصيدة زوربا وغيرها، حيث جاء في قصيدة الأوباش[١٧] :

جهلنـــــا مـــــا يـــــرادُ بنـــــا فقلنـــــا ... وامـــــــــيس يـــــــــدبرها الخفـــــــــاءِ
فلمـــــا أيقظتنـــــا مـــــن ســـــباتٍ ... مكائـــــــــد دبرتهـــــــــا الأقويـــــــــاءِ
ولـــــيس هنـــــاك شـــــك فـــــي حيـــــاةٍ ... تـــــــدوس العـــــــاجزين والأمـــــــراءِ
لجأنـــــــا للشـــــــرائع باليـــــــاتٍ ... لتحمينـــــــا وقـــــــد عـــــــز احتمـــــــاءِ
فكانـــــــت قـــــــوة أخـــــــرى وداءٍ ... رجونـــــــا أن يكـــــــون بـــــــه الـــــــدواءِ

وهكذا بدأ الجواهري يحيك خيوط مملكته الشعرية معبأ نفسه لخوض غمار معارك آتية كان لابد له من أن يتغلب فيها، أو خوض عالم جديد، لا مزاح فيه، عالم لا يقبل من أبطاله بأقل من أمثال الشنفرى، وعروة الصعاليك، ولبيد، وأبي تمام، والبحتري، وأبي الطيب، وأحمد شوقي، وبدوي الجبل، والزهاوي والرصافي، والشبيبي، وغيرهم من فطاحل القديم والحديث. ويعد الجواهري آخر شعراء المدرسة البارودية التقليدية، ظل وفياً لتراث الشعر العربي، وشكل القصيدة العربية [١٨].

لم يحدث أن يتفق النقاد والأدباء على شاعر معين أو على مدرسة شعرية لتكتل أدبي، أو لشاعر معروف كما حدث الاتفاق على مدرسته الشعرية، حيث أن الأغلبية تعتقد بأن له مدرسة شعرية خاصة لا يمكن قياسها بالمدارس المعهودة، أو من الصعب جداً إبداء وجهة النظر والحكم بانتمائه إلى المدرسة الفلانية. هذا فضلاً عن أنه قد قيل الكثير حول تحديد الاتجاه الشعري لديه، فكلها كانت تصب في واحة الاتفاق على أن مدرسته مدرسة متميزة تكاد تكون فريدة في الأسلوب والمضمون والشكل وهذا لا يدحض القول يكون الجواهري آخر حلقة من حلقات الشعر الكلاسيكي بلا منازع، فهو وريث الشعر العمودي، والحروف العربية، والعلم البارز الذي كان يرفرف في سماء الشعر التراثي التقليدي، وبذهابه خلت الساحة الأدبية من عملاق يشار إليه بالبنان ويتفق على نبوغه الشعري وإمارته للشعر المنحدر من امرئء ألقيس ولبيد وطرفة والبحتري وأبي تمام ودعبل والمتنبي وشوقي وغيرهم. هو كان آخر الشعراء الكبار الذين كتبوا قصيدة بشكلها الكلاسيكي، وبموته يمكن القول إن أحداً من الشعراء لن يستطيع أن يقدم جديداً في هذا الشكل و في الحقيقة كان الجواهري قامة هائلة بعد شوقي وربما باستمراره استطاع أن ينقل نبض العصر في قصيدته [١٩].

من الملاحظ إن الجواهري على الرغم من قضاء سنين طوال من عمره في المهجر، لكنه لا يحبذ شعراء المهجر ولا يدين بأسلوبهم الشعري، ولعل مرد ذلك إلى عدم وحدة الأسلوب والفكرة عندهم والذي كان الجواهري يعتقده وحتى الذين لم يميزوا بين الفكر والأسلوب والذي كان الجواهري يسلك في طريقهم الشعري، فقد تميز عنهم واختص لنفسه بشعره وأسلوبه الخاص بالجواهري الشاعر، قال ذلك قبل أكثر من نصف قرن" لا أحب الشعراء المهجريين مطلقاً لأني أدين بالأسلوب والفكرة وبدون تجزئة"، أما الذي جمع في شعره بين الديباجة والفكرة في مصر (شوقي) وفي لبنان (بشارة) وفي سوريا (بدوي الجبل) و (عمر أبو ريشة) وفي العراق (الرصافي). أما الأوائل فالمتنبي في شعره، أحبَّ شعرَ البحتري و صورته لحد المبالغة [٢٠].

إن اتفاق القول على عدم وضع الجواهري في قالب معين في دنيا الشعر أدى ببعضهم إلى تسميته بالحالة الخاصة، أو الظاهرة الجواهرية في الشعر، فهو بهذا قد تحدى النقد والنقاد من التقرب إلى ساحة شعره، إلا بالأحكام العامة والجاهزة دون تعمق في كنه شعره، لعل ذلك من السر والغموض بمكان قد يتطلب زماناً آخر لفك رموزه

ووضعه على طاولة التشريح. ومن السمات التي يقدمها أي شاعر أنه مقلد أو مجدد أو منزو في الماضي لا يبرحه،أو مخترق للحاضر يعبر عنه بصورة في أشعاره،أو مستقبلي يبشر بالآتي،فأين نضع الجواهري من هذا وذاك؟[٢١].

هنا يُطرح سؤال و هو: هل الجواهري كلاسيكي مقلد وحسب؟ أم مجدد ينبذ القديم التراثي؟ أم هو بين هذا وذاك؟ أم صاحب نبوءة في الشعر تمتاز عن هذا كله،أننا نقدر أن نضع تساؤلات أخرى إضافية قد يتحير معها الناقد ويصعب اختيار الحكم الأدبي المطلوب فلا نستغرب إذا حينما يقول الدكتور محمد مبارك والحديث عن الجواهري، كظاهرة شعرية، صعب بل مغامرة غير محسوبة العاقبة. و يضيف الدكتور بقوله:" رغم السنوات الستين من عطائه الشعري، ومع احتفاء الناس به من حيث هو ظاهره متميزة في الشعر، وتعصب العارفين بالشعر والأدب منهم له وتقديمهم إياه على كل من سواه، لم يحظ الجواهري الظاهرة الشعرية المتمردة في شعرنا المعاصر، بما هو حقيقي به من درس وتقويم ونقد، فظلت لذلك أبعاد التجربة الشعرية ولسماتها وخصائصها الفنية في الخلق الفني بعيدة عن دائرة الوعي العام لإنساننا العربي المعاصر[٢٢].

إن مدرسته الشعرية بتعقيداتها قد تكون واضحة للجميع، وإذا كان الجواهري آخر رعيل الشعر العربي الكلاسيكي، أو برأي المتطرفين له بأنه أكبر من قال الشعر العربي لحد الآن، (وبغض النظر عن أيّ رأي متطرف)، فهو فريد في إتباعه للمدرسة التقليدية والالتزام بالتراث ودون التأثير بموجبات التجديد لغة وقالباً وأسلوباً، هذا فضلاً عن أنه أكبر متجدد في الشعر العربي معنىً وموضوعاً وامتياز الجواهري في هذا المجال اتخاذ القديم وحفظه وممارسته بل إجادته إجادة تامة، بلباس التجديد والتحديث من دون أية إساءة إلى المنهج الكلاسيكي، فلابد للدراسة وهي ترصد خط التطور الفني للشعر العراقي الحديث من أن تقف وقفة متأنية عند ظاهرة مميزة في هذا الشعر تمثل قمة من قمم تطوره، تلك الظاهرة التي لا يمكن أن نطلق عليها مصطلح (الكلاسيكية الجديدة) المتمثلة في محمد مهدي الجواهري، إلا إننا من وجهة النظر النقدية، نجد في أغلب الأحكام التي قيلت في شعره تطرفاً مع الشاعر أو ضده، وتناقضاً أحياناً، ومبالغة أحياناً أخرى، فضله بعضهم على شوقي، والرصافي والزهاوي، وعده آخرون شاعراً تقليدياً يحسن فن النظم، وبالغ آخرون مقررين أن الجواهري أكبر من أن يدرس، بينما ذهب بعضهم إلى أن للشاعر نمطاً جواهرياً جرى في طريقة أدبية خاصة، فوجدت قبولاً واستحساناً من جمهرة المتأدبين، و انتهى آخرون إلى أنه شاعر عباسي أخطأه الزمن ووجوده في القرن العشرين ظاهرة غريبة [٢٣].

لم يكن لأسلوب الجواهري الشعري أن يأتي من فراغ، أو أن يظهر لوجود عوامل عمومية يمكن انطباقها على الأسلوب الشعري أي شاعر آخر، بل هو نتيجة حتمية لمخاض تولد أكبر مخزون ثقافي تراثي وأكبر مخزون عصري. ما هو هذا المخزون؟ ما هي روافده؟ من أي منهل تشربت ثقافة الجواهري؟ ما هي مصادر ثقافته التي أوصلته إلى ذلك المستوى المتفرد والمسمى بالظاهرة الشعرية الجواهرية؟ لا يخفى على أحد أن الجواهري يندر أن ترى في أشعاره قصائد لم يعتمد فيها على تراثه الثقافي المخزون في ذهنه وفكره، فهو في كل الأحوال تجده قد بني بنيانه الأدبي على هذه الخلفية الغنية ومطالعة دواوينه خير شاهد على ذلك، فان الجواهري إن لم يكن حاملاً لتراث يضرب في عمق ألف عام، وان لم يكن هو البقية الباقية من التراث الأدبي العربي الصحيح على حد قول عميد الأدب العربي طه حسين، ما كان له هذا التسلط والحكم على الحرف والكلمة، وما كانت القافية تنصاع له بخضوع، وما كان الموضوع أو المناسبة التي يريدها لينشد فيها تتجزأ وبتلك السرعة الفائقة لتتحول إلى نظم في ثوب تراثي

متزين بزينة العصر والزمان[٢٤]. اكتنز الجواهري في خياله كل ما مر على قومه وبلاده من تعسف وجور من الحاكمين والمتنفذين خلال القرون السبعة المظلمة، ورأى مجتمعه الذي يعج بالمشاكل والعقد، فاندفع يصور ذلك ويفهم الجيل الحائر بما يتصوره من مثل وآراء[٢٥].

المبحث الثاني : " الإبداع عند الجواهري" .

نستعرض في هذا المحور أهم المميزات الإبداعية في شعره.

أهم مميزات شعر الجواهري :

لا شك أن لشعر الجواهري ميزاتٍ خاصةً يمتاز بها. فهي كثيرة ولكن اختيرت من بينها أربع ميزات والتي حصرناها في :

١- العنف الثوري

يعود العنف في شعر الجواهري إلى الطبيعة المزاجية العنيفة التي تمتاز بها شخصيته، والشيء الذي يلفت الانتباه إليه هو أن عنفه ليس بالعنف الذي يوحي بالخشونة والحقد، فهو عنف تتطلبه ضرورة الموقف والزمان. وهو عنف قد جاء بمثابة رد فعل طبيعي لواقع مر كان حرياً بأمثال الجواهري أن يوقعه معلناً صرخة قد تدوي في أوكار المغتصبين والحاقدين، صرخة لا تقبل المهادنة. فالعنف عنف لا فرق لدى ألجواهري سواءً كانت القضية صغيرة أو كبيرة، يكفي أن يرفض، أن يثور، أن يغضب، فتأتي القافية العنيفة لتعالج الموقف، مدحاً كان، أم رثاءً، وصفاً كان أم غزلاً، شكاية كانت أم عتاب. هاهو يصب جم غضبه بعنف على اللاهثين وراء السلطات الهزيلة لينالوا فضلة من فضلاتهم على حساب مواقف شعبهم:

عـــدا علـــي كمـــا يســـتكلبُ الـــذئبُ ... خلـــــقٌ ببغـــــدادِ أنمـــــاطَ أعاجيـــــبُ
خلـــــقٌ ببغـــــدادِ منفـــــوخٌ ومطـــــرحُ ... والطبـــــلُ للنـــــاسِ منفـــــوخٌ ومطلـــــوبُ

وحتى يأتي عليهم ليصفهم وصفة عنف قد تقفي عليهم حين قال:

والـــــــخابطينَ بـــــــظلماءٍ كأنـــــــهم ... بغـــلُ الطـــواحينَ يجـــري وهـــو معصـــوبُ

ويحدث أن يحول الشاعر عنفه الشديد إلى استهزاء وسخرية ذات طابع اجتماعي يهز بعنفه هذا كيانين السلطة المتجبرة والجماهير من النوع الذي تطلب الراحة وتؤنس مع الظلم حين يقول[٢٦] :

نـــــامي جيـــــاعُ الشـــــعبِ نـــــامي ... حرســـــــــتكَ آلهـــــــــةَ الطعـــــــــامِ
نـــــامي فـــــإن لـــــم تشـــــبعي ... مـــــــن يقظـــــــةٍ فمـــــــن المنـــــــامِ
نـــــامي علـــــى زبـــــدِ الوعـــــودِ ... يـــــــداف فـــــــي عســـــــلِ الكـــــــلامِ

ونرجع إلى عهد الثلاثينيات وأول انقلاب عسكري عراقي وهو انقلاب بكر صدقي ١٩٣٦م حيث انبرى الجواهري ليدعو قيادة الانقلاب إلى العنف الثوري على المتلاعبين بالشعب حينما يصرخ:

أقـــدم فأنـــتَ علـــى الأقـــدام منطبـــعُ ... وأبطـــــش، فأنـــــت علـــــى التنكيـــــلِ مقتـــــدرُ
وثـــق بـــأن الـــبلادَ اليـــومُ أجمعهـــا ... لمـــــا تـــــرجيهِ مـــــن مســـــعاكَ تنتظـــــرُ

ويستمر يخاطب رئيس حكومة الانقلاب، ليعنف بالذين أراقوا دماء الشعب ونكلوا به أشد تنكيل ويقول:

فحاســـب القـــومَ عـــن كـــلِ الـــذي اجترعـــوا ... ممـــا أراقـــوا، ومـــا اغتلـــوا، ومـــا احتكـــروا
لـــلآن لـــم يلـــغ شـــبر مـــن مـــزارعهم ... ولا تزحـــــزحُ ممـــــا شـــــيدوا حجـــــرا

وتتكرر الحالة بعد ثلاثة عقود من هذا التاريخ، حيث ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م، وحيث أسدل الستار على العهد الملكي وحكوماته الشطرنجية التي لعبت لعبتها بالشعب والملك. وفي قاعة المحكمة التي تصدرها المهداوي والعقيد ماجد أمين لمحاكمة رجال العهد الملكي، فكانت بين برهة وأخرى ترتفع صيحات الجالسين وهتافاتهم، فتراهم يلقون الخطب والأشعار المرتجلة ارتجالا، فكأنما هم في سوق عكاظ. وقد أثارت هذه الأجواء مشاعر العنف عند الجواهري فأهدى رئيس المحكمة قصيدة اهتزت لها أركان المحكمة والحاضرون فيها وقد عبر فيها عما يجول في خاطره تجاه المحكمة وقال [٢٧] :

عصفت بأنفاسِ الطغاةِ رياحٌ ... وتنفست بالفرحةِ الأرواحُ
واليومَ تشرقُ في النفوسِ وضاحةٌ ... ويشعُ في حلكاتها مصباحُ
جدعت عرانينا غلاظ فتيةٌ ... من يعربُ غر الجباهِ صباحُ

٢- التناقض

التناقض سمة من سمات حياة الجواهري، ولقد أقر بها في مواضع عديدة لم يكن لشعره أن يتخلص منه، فقد أكسبه تناقضاً جلياً وكأنما التناقض صار غرضاً من أغراضه الشعرية، طفح من خلال قصائده العديدة ذوى السمة التناقضية، لقد تحير النقاد في أمر تناقض الجواهري، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، و الجواهري نفسه كان يعزوها إلى الأوضاع العمومية لحياته الخاصة، والى تكوينه النفسي والبيئي.

يحب نفسه إلى حد النرجسية، ثم يهينها ويعاتبها ويكبح جماحها، يؤيد تيار الاشتراكية والماركسية، ولكنه لا يعتقد بها ويخلق أسطورة في معلقته (آمنت بالحسين)، أكبر محافظ للشعر الكلاسيكي القديم دون رفض التحديث والتجدد.

وهاهو يجسد الروح التناقضية لديه حين قال :

عجيبٌ أمركَ الرجراجُ ... لا جنفٌ ولا صددا
تضيق بعيشةٍ رغدٍ ... وتهوى العيشةَ الرغدا
ولا تقوى مصاً مدةً ... وتعبدُ كلُ من صمدا

يقول الدكتور عبد الحسين شعبان "اليس في ذلك تناقض الجواهري المحبب، الذي جمع الأضداد بتناسق عجيب: العيش الرغد، الرفاهية، الزهد، الصمود، انه يريدها ويتمناها ولكنه يتبرم منها أيضاً، أنها جدلية الحياة وجدلية الشعر الذي كان عنوان كتابي، الجواهري جدل الشعر والحياة في قصيدة له يمدح فيها ملك العراق فيصل الأول بعد عودته من لندن عام ١٩٢٧م الذي يقول فيها"[٢٨]:

حياكَ رُبكَ من ساعٍ بسراعِ ... يلقى الوفودَ بوجههِ الوضاءُ
هذه الوفودُ وفودُ الشعبِ حاملةً ... إليكَ إخلاصُ آباءٍ وأبناءِ
أنت الطبيبُ لشعبي والدواءَ له ... وأنتَ شخصتَ منه موضعَ الداءِ

ولكنه بعد مدة ليست بطويلة أنشد قصيدة في مدح آل سعود أثناء زيارة الأمير فيصل عبد العزيز آل سعود مما أغاض الملك وأثار نقمته عليه، وقال فيها:

فتى عبد العزيزِ وفيكَ ما في ... أبيكَ الشهمُ من غررِ المعاني
وذاك لأنَ كلَ بني سعودٍ ... لهم فضلٌ على قاصٍ ودانِ
وإنهم الملاجئء في الرزايا ... وإنهم المطامحُ والأماني

في بداية الثلاثينيات أصدر الجواهري بتشجيع نوري السعيد الرجل المتنفذ في العهد الملكي ورئيس الوزراء جريدة الفرات، ولكن تراه في حين يلقى قصيدة أبو التمن، يحمل على نوري السعيد وهو حاضر في المجلس التأبيني الذي أقيم لجعفر أبي التمن الزعيم الوطني العراقي حين قال:

نكـــراءُ مـــن هـــم أهـــلُ هـــذي الـــدارِ هـــي للصـــحابةِ مـــن بنـــي الأنصـــار
مـــن كـــل بـــدري ومـــن كـــل حـــواريَ هـــي اللـــذين لـــو امتحنـــتَ بلاءهـــم
لعجبـــتَ مـــن ســـخريةِ الأقـــدارِ هـــي للـــذي مـــن كـــلِ مـــا يصـــمُ الفتـــى

في عام ١٩٤٧م انتخب نائباً عن كربلاء ولكن لم يمض بالمجلس كثيراً فاستقال منه، وهو الذي كان يطمح للنيابة والنيابة كانت تستهويه، كما كانت الوزارة. أما الجواهري في لحظة تناقضه وتراه محمولاً على أكتاف الناس في شوارع بغداد ليمجد الوثبة، وثبة كانون وليشارك الجماهير وليصرخ لدم الشهداء، ودم أخيه جعفر حين قال:

أتعلـــــمُ أم أنـــــتَ لا تعلـــــمُ بـــــأن جـــــراحُ الضـــــحايا فـــــمُ
فـــــمٌ لـــــيسَ كالمـــــدعي قولـــــةً ولـــــيسَ كـــــآخرٍ يســـــترحمُ

وفي خضم الاعتقالات، والأجواء التعسفية، من السجن والمحاصرة، وإغلاق الجرائد، ينتهز الجواهري فرصة الدعوة الموجهة له بالاشتراك في حفل تأبين عبد الحميد كرامي في لبنان فيسرع إلى هناك، وهناك في لبنان وفي قاعة سينما ريفولي، حيث جلس في الصف الأمامي رئيس الوزراء رياض الصلح وشخصيات، وممثلين في المجلس وقادة، وجنود وشرطة، صعد الجواهري المنصة وهو المطلوب في العراق حياً أو ميتاً، ولو كان غيره لكان بامكانه استغلال المناسبة، والفرصة ليكسب ملجأ ولو لزمن قليل، وهو المطارد من العراق ولكنه حين بدأ ينشد:

بـــــاقٍ وأعمـــــارُ الطغـــــاةِ قصـــــارُ مـــــن ســـــفرِ مجـــــدك عـــــاطرٌ مـــــوارُ

وكان المطلع فاشتدّ التوتر، والوجوه تطلع إلى ما يحدث بعد المطلع ليصل إلى نقطة الحدث، وليقطع الخيوط، فهو الجواهري لا فرق لديه إن كان بالعراق أو كان بلبنان، يقول الكلمه وليحدث ما يحدث:

والمجـــــدُ أن يحميـــــكَ مجـــــدكَ وحـــــدهُ فـــــي النـــــاسِ لا شـــــرطَ ولا أنصـــــارُ
والمجـــــدُ إشـــــعاعُ الضـــــميرِ لضـــــوئهِ تهفـــــو القلـــــوبَ، وتشـــــخص الأبصـــــارُ
والـــــمجدُ جبـــــارٌ عـــــلى أعتـــــابهِ تـــــهوي الـــــرؤوسَ ويســـــقطُ الجبـــــارُ

تقوم القيامة الجواهري يتهجم على مَن؟ على رياض الصلح، وعلى أعضاء الحكومة وهم جالسون. إذن الطرد وعدم السماح له بالإقامة في لبنان، ليرجع إلى العراق ويستقبله سجن أبي غريب، إن كان هذا تناقضاً لتحرك الجواهري فهناك من يقول فليحيا التناقض إذن. من يستطيع أن يقتحم تلك الميادين، غير الجواهري، نعم من يستطيع أن يجمع هذه المتناقضات غير شخصية استثنائية، لشاعر استثنائي بجدارة وكبرياء. ولنا أن نتساءل: كيف ولف الجواهري بين انحداره وبيئته الأولى الدينية المحافظة وبين نزعاته التمردية، التجديدية، المنفلتة أحياناً؟ ليس عسيراً على الجواهري حين تتساوى معه القصيدة الغزلية، بل قصيدة الغزل المكشوف وحديثه عن معشوقاته الشهيرات: آنيتا، بارينا، مار وشكا، وعن حبه العذري الأول، ورغائبه المتناقضة وبين رائعته العصماء" آمنت بالحسين" في ١٩٤٧م والتي كتب خمسة عشر بيتاً منها بالذهب على الباب الرئيسي المؤدي إلى الرواق الحسيني في كربلاء:

فـــــداءٌ لمثـــــواكَ مـــــن مضـــــجعِ تنـــــــــورَ بـــــــــالأبلجِ الأروعِ
بـــــأعبقِ مـــــن نفحـــــاتِ الجنـــــانَ روحـــــاً ومـــــن مســـــكها أضـــــوعَ
ورعيـــــاً ليومـــــكَ يـــــومَ (الطفـــــوفِ) وســـــقياً لأرضـــــكَ مـــــن مصـــــرعَ
فيـــــابن (البتـــــول) وحســـــبى بهـــــا ضـــــماناً علـــــى كـــــل مـــــا أدعـــــى

٣- النفحة الجماهيرية الشعبية

في عقود الثلاثينيات والأربعينيات وحتى الخمسينيات، حيث النظام الملكي وحكومات وطنية حسب الظاهر وطنية، لكنها مرتبطة بقوى أخر، تعسف وتظلم وتعتقل، والخاسر الوحيد هو أبناء الشعب، الجماهير. لقد كانت ساحات الكرخ والرصافة تعج بالناس وتتحرك لمجرد إعلان الجرائد بأن هناك قصيدة ناريةٌ للجواهري، فهو يتحدى والجماهير كانت تتشوق إلى ما يقوله ولمجرد السماع أو القراءة عبر الجرائد، فان أبيات شهيرة من القصيدة تنتشر وتذاع، وتصبح كالأمثال السائرة في أفواه الجماهير، تنقلها طبقات المجتمع، لاسيما المظلومون والمسحوقون، وان كان هذا يدل على شيء فإنما يدل على الالتصاق المباشر لشعر الجواهري مع قضايا الشعب، مع الأمور اليومية للناس مع الأحداث التي تثير الناس، وطبعاً فان المدار في هذا بين محورين، محور السلطة، ومحور الجماهير. كان الجواهري في عمق المحور الثاني يتفاعل معه في خلق الحدث. وهذا يعني أن وظيفة الجواهري بالنسبة للجماهير تكون مضاعفة فهو فضلاً عن اشتراكه مع الجماهير في إيجاد الحدث، فانه يرى نفسه مسؤولاً عن حفظ ذلك الحدث بقصائده وأشعاره، لذلك كانت أشعاره كالماء وكالهواء يتلقاها الناس بحرارة وينشدونها حباً واحتياجاً.

عندما كتب قصيدته المعروفة الساخرة (طرطرا). اعتراضاً على الأجواء التعسفية وحملات الاعتقالات وإغلاق الصحف، فعلت هذه القصيدة فعلتها وأصبحت في ليلة وضحاها ترددها كافة الناس، الشباب منهم والكهول، الفتيان وحتى الصبية. ولقد حملت هذه القصيدة أفكاراً انتقاديةً حادة وهجوماً قاسياً على الحكومة ومن ورائها القوى الاستعمارية.

أي طرطـــــــرا تطـــــــر طـــــــري تقـــــــــــــــدّمي تأخـــــــــــــــرّي
تشيـــــــــــــــعّي تسنـــــــــــــــنّي تهـــــــــــــــوّدي تنصّـــــــــــــــري

ومن خصائص المطلع لدى الجواهري قوته و تصريحه واستعمال فعل الأمر، لذلك نرى كثيراً من قصائده وهو يخاطب الجماهير ويحرك فيهم الهمم بإطلاق فعل الأمر وذلك لبيان جدية القضية وأهميتها والتأكيد على العلاقة القوية مابينه وبين أبناء الشعب. يقول الدكتور زاهد محمد زهدي: "ومعلوم أن التقليد السائد في القصيدة العمومية هو أن يتفق (العروض) و (الضرب) في المطلع على الأقل، و هو ذاته كثيراً ما يتمسك بهذا التقليد في أكثر من بيت في القصيدة الواحدة[٢٩].

و يقول أيضاً"مع إن التصريع يعطي في العادة قوة للقصيدة، إلا أنه ليس شرطاً دائماً". وبحكم العلاقة الوطيدة بينه وبين الجماهير، فالشعبية كانت من مضامين شعره، فلا يغيب عن أية قضية تهم الشعب من دون أن يلتفت إليها أو يشيد بها أو يدافع عنها، فلذلك أصبحت أبيات من قصائده عناوين لمسميات تتعلق بظروف الناس، مثلاً غاشية الخنوع، أطبق دجى، الكوفة، الكوفة الحمراء، دجلة الخير، أتعلم أم لا تعلم، هضبات العراق، فتى الفتيان، أرح ركابك. هذه كلها عناوين أُخِذت من عبارات المطالع أو من عمق القصيدة، فتحولت إلى لافتات وشعارات تداولها الناس وقد تطابق غير أحداثها وتستعمل في غير أماكنها، فإنها وان كانت تشير إلى قصيدة معينة أو حادثة خاصة، فإنها من مواضيع تعالج الأحوال العامة للناس وتدخل حياتهم ومفرداتها. ويكفي أن ننظر إلى قصيدة كان قد نظمها تمجيداً للشعب الكردي ونضاله ومطلعها:

قلبـــــــي لكردســـــــتان يهـــــــدي والفـــــــمُ ولقـــــــد يجـــــــودَ بأصـــــــغريهِ المعـــــــدمِ

وجاء في آخر بيت من القصيدة المتكونة من ستين بيتاً:

شـــــعبٌ دعائمـــــهُ الجمـــــاجمُ والـــــدمُ تـــــتحطمُ الـــــدنيا ولا يـــــتحطمُ

لقد تناقل أبناء العراق هذا البيت وسار سير النار في الهشيم حتى طلاب المدارس الابتدائية كانوا يحفظونها ويرددونها، والطريف في هذا الأمر أن هذا البيت أصبح شعاراً يلقيهُ كثير من الأحزاب والمنظمات السياسية وتجعله خاصاً بها بالمضمون من دون الإشارة إلى صاحب هذا البيت الشعري، ولا يغرب على العراقيين من كافة شرائحهم، أن النظام الحاكم في السابق في العراق كان في العقد الأول من حكومته قد اتخذ من هذا البيت الشعري شعاراً لأدبياته، يلقيه في مسيراته وتجمعات الشعب في المناسبات المختلفة، بل كان يغير من بعض كلماته أو يبدلها بكلمات تتوافق مع ما يريد، حتى ظن الناس أن البيت لأحد قيادي الحزب الدكتاتوري السابق، فمثلاً غيروا بين مدة وأخرى كلمه (شعب) ووضعوا مكانها (وطن)، أو كلمه (دعائمه) ووضعوا مكانها (تشيده) ليصبح (وطن تشيده الجماجم) أو (حزب تشيده الجماجم)، إشارة إلى حزب البعث المقبور. في حال كان هارباً منهم وخارجاً من العراق. أما بالنسبة إلى نهر دجلة فقد أهدى لهذا النهر المعطاء لقباً واسماً يبقى ما بقي الدهر، وهو (دجلة الخير)، بقصيدته الذائعة الصيت :

حييـــــتُ ســـــفحكِ عـــــن بعـــــدٍ فحيينـــــي يـــــا دجلـــــةَ الخيـــــرِ، يـــــا أم البســـــاتينِ
حييـــــتُ ســـــفحكِ ضـــــماناً ألـــــوذُ بـــــهِ لـــــوذَ الحمـــــائمِ بـــــين المـــــاءِ والطـــــينِ

هذا هو الالتحام بالأرض والشعب. فهو وان كان مغترباً لم يكن لينسى شعبه وهمومه، فلم يكن بعيداً عن واقع همومهم ومعاناتهم، وما كان يريد بدجلة إلا الأهل والأحباب، الجماهير التي كانت تنتظره على أحر من الجمر. أليس هو القائل "شاعر لا يوجد الناس في ديوانه ليس بشاعر"، نعم هو يصوغ وينمق، ولكن إلى أي مدى هناك حضور للناس في ديوانه والى أي مدى هو مع الناس، هذا هو السؤال، و ما أظن الجواب إلا في قوله :

أنـــــا العـــــراقُ لســـــاني قلبـــــهٌ ودمـــــي فراتـــــه، وكيـــــاني منـــــه أشـــــطارُ

أو في قوله:

أنـــــا عـــــرُوةٌ الـــــوردي رمـــــزُ مـــــروءةِ العـــــربِ العريـــــب
وزعـــــتُ جســـــمي فـــــي الجســـــومِ ومهجـــــتي بيـــــنَ القلـــــوبِ

الخاتمة

وفي ختام البحث توصل الباحث من خلال بحثه أهم الاستنتاجات التالية :-

١- إن الجواهري هو نقطة حاسمة من نقاط التحرر في تكريس الصراع ضد كل من يغتال نوازع التحرر والخير لدى أهم شخصية مرموقة في عالم الشعر العراقي والعربي.

٢- إن فكر الجواهري أعطى قيمة محفزة للجيل الصاعد باستلهام دروس الحرية السياسية والفرح والسعادة وحق الخيار الشخصي والجرأة النضالية من أجل الحقوق، من أجل العمال والفلاحين وكل معذبي الأرض،من أجل المرأة التي ناشدها الشاعر المدوي أبو فرات.

<u>الهوامش</u>

١- ديوان الجواهري : ٨.

٢- نفسه : ٤.

٣- نفسه : ٦٢.

٤- ذكرياتي : ١٢١.

٥- نفسه : ٦٧.

٦- نفسه : ٦٩.

٧- نفسه : ٥٢.

٨- نفسه : ٩٢.

٩- الجواهري وسيمفونية الرحيل : ٩.

١٠- نفسه : ١٢٠.

١١-نفسه : ١٢٦.

١٢- ديوان الجواهري : ١١.

١٣- نفسه : ٧٣.

١٤ – محكمة المهداوي : ٣٧.

١٥- شعراء الغري : ١٤٧.

١٦- نفسه : ١٦٠.

١٧- الشعر العراقي الحديث : ١١٧.

١٨- الجواهري شاعر العربية : ٨٤.

١٩- علي كردي، مقالة في مجلة الهدف تحت عنوان رحلة القرن العشرين بين النجف ودمشق، عدد ١٢٦٦، ١٠/٥/ ١٩٧٢، ص٣٦.

٢٠ – في رحاب الجواهري : ٢٢.

٢١- فريد أبو سعده، جريد الاتحاد، سليمانية، العدد ٣٩٤، أيلول ٢٠٠٠م.

٢٢- الشعر العربي الحديث : ٢٨٩.

٢٣- نفسه : ٢٩٥.

٢٤- تطور الشعر العربي الحديث في العراق : ٥٧.

٢٥- الجواهري جدل الشعر والحياة : ٦٢.

٢٦- عياد شكري، جريدة الاتحاد، سليمانية، العدد٣٩٥، تشرين الثاني ٢٠٠٠م.

٢٧- مبارك محمد، مقالة بعنوان محاولة في فهم الظاهرة الجواهرية الشعرية، مجلة الأقلام، العدد ٢ ، سنة ١٩٧٨م.

٢٨ – محمد مهدي الجواهري شاعر العراق الأكبر : ٦٢.

٢٩ – الجواهري ضاجة الشعر العربي في القرن العشرين : ١٥٢.

المصادر والمراجع

١- تطور الشعر العربي الحديث في العراق :علي عباس علوان، بغداد: وزارة الإعلام، بدون تاريخ.

٢- الجواهري وسيمفونية الرحيل : خيال الجواهري، دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٩م.

٣- الجواهري شاعر العربية : عبد الكريم الدجيلي، ج ١، مطبعة الآداب في النجف الأشرف،١٩٧٢م.
٤- الجواهري ضاجة الشعر العربي في القرن العشرين : زهدي محمد زاهد، بيروت: دار القلم.
٥- الجواهري جدل الشعر والحياة، شعبان عبد الحسين، بيروت: دار الكنوز الأدبية،١/١ / ١٩٩٧.
٦- ديوان الجواهري : محمد مهدي الجواهري، الجزء الأول إلى الجزء السابع، مطبعة الأديب، بغداد : ١٩٧٢م.
٧- ذكرياتي : محمد مهدي الجواهري، الجزء الأول، دمشق، دار الرافدين .
٨- شعراء الغري : علي الخاقاني، الجزء العاشر، الطبعة الثانية، قم، مطبعة بهمن، ١٤٠٨ هجرية.
٩- الشعر العراقي الحديث، جلال ا لخياط، الطبعة الثانية، بيروت: دار الرائد العربي،١٩٧٨ م.
١٠- الشعر العربي الحديث من أحمد شوقي إلى محمود درويش: ميشال خليل جحا، الطبعة الأولى، بيروت: دار العودة، ١٩٩٩م.
١١- عياد شكري، جريدة الاتحاد، سليمانية، العدد٣٩٥، تشرين الثاني ٢٠٠٠م.
١٢- علي كردي، مقالة في مجلة الهدف تحت عنوان رحلة القرن العشرين بين النجف ودمشق، عدد ١٢٦٦، ١٠/٥/ ١٩٧٢.
١٣- في رحاب الجواهري ، صباح المندلاوي، الطبعة الأولى، دمشق : دار علاء الدين، ٢٠٠٠م.
١٤- فريد أبو سعده، جريد الاتحاد ة، سليمانية، العدد ٣٩٤، أيلول ٢٠٠٠م.
١٥- محمد مبارك، مقالة بعنوان محاولة في فهم الظاهرة الجواهرية الشعرية، مجلة الأقلام، العدد ٢، سنة ١٩٧٨م.
١٦ - محمد مهدي الجواهري شاعر العراق الأكبر : حيدر بيضون توفيق، بيروت : دار الكتب العلمية ١٩٩٣م.
١٧- محكمة المهداوي : محمد حمدي الجعفري، بغداد: دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٠م.